الفصل التاسع

المدن كأماكن مركزية

ليس أمرا سهلاً بالنسبة للعديد من الجغرافيين تفسير وجود المدن والكيفية التي تنمو بها وتتطور وتتداعى. ما أعنيه، نعرف سبب قيام المدينة (س) وعوامل تطورها وكما نعرف أسباب تداعي المدينة (ص)، ولكننا عندما نضع الأمور المتشابهة مع بعض يبق الكثير الذي نجهله خاصة فيما يتعلق بالتغيرات التي تطرأ على المدن واسبابها. فالاهتما منصب على المبادئ العامة للعمليات التي تحدث وتؤثر على المستوطنات البشرية. وقد تحقق تقدم في هذا الجانب ووصل بعضها الى مستوى بناء نظرية عنها.

ان التفكير بموضوع المستوطنات البشرية كأماكن مركزية يميل إلى أن يكون متماسك وعملي كما لاحظنا في الفصل السابق عن مناطق زراعة الرز الجديدة في غينينا. فقد ساهم الجغرافيون كاستشاريين في التخطيط والتنمية الاقليمية وطوروا ما يعرف بنظرية الأماكن المركزية.

ان الاهتمام بالمستوطنات البشرية وتنظيمها المكاني وتأثيراتها على ما يحيط بها قديم. وقد ناقشنا في الفصل الثاني جذور الفكر الجغرافي وعرفنا ان الجغرافيين العرب قد استخدموا اسس هندسية لتفسير انماط الاستيطان، كما يجري حاليا، ولم يتم تطوير هذه الافكار ولم تعرف بما فيه الكفاية حتى وقت متأخر.

وفي أوروبا، كتب الجغرافي الانكليزي John Graunt عام ١٦٦٢ موضحا تراتب سيادة المدن، وتباين قيم الاراضي بسبب خصائصها الذاتية (الخصوبة) وبسبب مواقعها النسبية من الأسواق. وفي فرنسا كتب Jean Reynaud عام ١٨٤١ متوقعا العديد من المبادئ التي تضمنتها النظريات الحديثة.

من الغريب ان تظهر افكار جيدة ثم تغيب لعدة اجيال وبعضها يندثر الى الأبد. ففي مجال الافكار النظرية، يجب ان نكون مدربين من الإدعاء باصالة الاعمال والافكار التي

نصل اليها. ففي الغالب عندما ننظر بعناية نجد بدايات باهتة من الاهتمامات والاشارات الى ذات الموضوع أو الفكرة من كتابات واعمال القدامى.

ثلاث اسماء من عقد الثلاثينيات لها اهميتها وصلتها بنظرية الأماكن المركزية التي نعرفها اليوم. في ألمانيا انكب والتر كرستالر على خرائط جنوب بلده يحللها مركزا على المسافات المتوازنة بين المدن ذات الاحجام المتقاربة. من هذه البداية، طور كرستالر نظرية بمنظور هندسي عن الطريقة التي تتباعد بها المدن عن بعضها في المنطقة السهلية المنبسطة حيث تتوازن درجة الخصوبة في جميع الاجزاء ويتوزع السكان في هذا السهل بصورة متوازنة ايضاً، ولما كانت المدن تتنافس فيما بينها على جذب المستهلكين والزبائن لذا فانها توفر ذات الوظائف الاقتصادية والخدمات، وتميل النشاطات البشرية الى دفع بعضه بعيداً لتنفرد بالمستفيدين من المناطق المجاورة. أي ان هناك عمليتي جذب للمستهلكين و النشاطات المكملة وطرد للنشاطات المتشابهة خارج السوق وبهذه الطريقة يتشكل نظام سداسي لتأثير الاماكن المركزية لأنه أقرب الاشكال الهندسية إلى الدائرة دون أن يترك منطقة بدون تبعية الى سوق معين.

يمكن تصور عملية التنافس على الحيز الجغرافي، إذا افترضنا وجود عدد من الأشخاص في غرفة مختلفة. وفجأة يعلن عن وجود شخص مصاب بمرض معد دون التعريف بهويته. سيتحرك الاشخاص مباشرة ليبتدعوا عن بعض. وسيحاول الجميع البقاء أبعد مسافة ممكنة عن الآخرين، لذا سيكون نمط التوزيع سداسيا كما اقترحه كرستالر، ويلاحظ هذا التوزيع السداسي المتوازن نسبيا في ولاية أيوا وفي شمال سهل الصين وحيثما تكون الأرض سهلية.

أخذ اوكست لوش هذه الطريقة الهندسية الجوهرية وقدم العديد من الافكار البناءة للجيل الذي يليه، وكانت افكاره ثرية تدعو للتفكير بها وتطويرها.

وجاء الشخص الثالث Edgar Kant من استونيا وقام بالكثير من الدراسات التجريبية عن المدن ونطاقات تأثيراتها في بلده. وقد كانت اعماله مستقلة عن الآخرين، ولاحظ الكيفية التي تتنافس بها المدن الكبيرة على جذب الزبائن والمستهلكين، وكذلك الكيفية التي تنتظم بها الاماكن المركزية الصغيرة بين المدن الكبيرة لتقوم بتوفير السلع والخدمات محليا، خاصة اساسيات الحياة التي عليها طلب دائم، وقد وجد طلبته ذات التنظيمات المكانية في جنوب السويد.

وفي السويد تنامت افكار كانت واهتماماته حول التغيرات التي تحصل في نظام الاماكن المركزية، وقد اكمل المسيرة Sven Godlund الذي اهتم بشكل خاص بما حدث في الاقليم بعد توفر اشكالا جديدة من النقل العمومي للربط بين المدن الكبيرة وجعلها اكثر سهولة في الوصول لسكان الريف، واليوم، نكاد ننسى ماذا يعني ايجاد خط جديد للحافلات من ناحية توفير فرص للتغيير في الريف الذي تمر به، مثل زيادة سهولة الوصول الى التنوع الكبير في السلع والخدمات وفرص العمل والترويح والتعلم وتوسيع مجال اختيار الاصدقاء وشركاء الحياة وغيرها.

لقد تغير كثيرا نظام الاماكن المركزية في اقليم Skane، جنوب السويد، وذلك من خلال معاناة العديد من الاماكن المركزية الصغيرة من قلة فرص البقاء نتيجة جذب مواقع ستراتيجية قليلة للوظائف والناس، يتداعى اثر المدن الكبيرة والنطاقات الحضرية المحيطة بها مع تداعي المسافة وبهذا تتوفر فرص لنمو الاماكن مركزية صغيرة بينها كنمو الفطريات Mushrooms يكون لها مناطق نفوذ صغيرة محيطة بها.

في العديد من المناهج الهندسية الأصلية لنظرية الاماكن المركزية افتراضات غير واقعية، فاليوم، لا ينتشر الناس بصورة متوازنة على سطح الأرض، وليس دائما المجال الجغرافي منتظم التوزيع، اضافة إلى هذا، لا يبق الناس معلقين بالظهير الارضي في انتظار ان تأتيهم المدن، فهناك تفاعل دينمي بين نمو المدن وهجرة الناس من الريف. فقد تطور النقل وتقنياته وأنشئت شبكات متكاملة وربط الاطراف بالمراكز. ما نتحدث عنه هو التعديل المعقد الحاصل في الانماط والتركيبات نتيجة التدفقات البشرية. في بعض الاحيان، يخفق الجغرافيون في معالجة حالة معقدة متشابكة، وقد نحتاج الى قمر صناعي حول الأرض ليصور التبدلات الحاصلة في العلاقات والتدفقات التي تجري على سطح الأرض، فليس هناك ظهير بشري ثابت، مع هذا، فالنظرية جيدة على الرغم من بعض الافتراضات الحادة، التي يمكن جعلها أكثر واقعية بمعالجتها بمرونة الواحدة تلو الأخرى.

لنفترض ان السكان الذين يخدمهم نظام الاماكن المركزية لا يتوزعون بصورة متوازنة في كل مكان، وتتباين كثافة وجودهم على سطح الارض بطريقة منتظمة وتتناقص الكثافة من الجنوب الغرب باتجاه الشمال الشرقي، فماذا نتوقع ان يكون حجم النطاقات السداسية للأماكن المركزية؟

ففي المناطق الكثيفة ستكون المدن اقرب إلى بعضها لجذبها عددا كافيا من المستهلكين من المناطق المحيطة بها حيث تقدم سلعها وخدماتها. أما في المناطق الاقل كثافة حيث يتبعثر السكان سوف تتباعد المدن عن بعضها كي تجذب عددا كافيا من المستهلكين لذات النشاطات، وهذا ما نجده حاصلا فعلاً في ولاية كنساس. ان كمية المطر المتساقطة شرقا تصل إلى (٥١٠) ملم سنويا وتتناقص تدريجيا إلى حوالي (٢٥٠) ملم في الغرب. ولما كان المطر يعني محصولاً افضل او ربحا اكثر للمزارعين لذا تميل المزارع لان تكون اكبر في المناطق الجافة لتنتج دخلاً كافيا، ويعني هذا تباعد القرى عن بعضها البعض وتناقص الكثافة السكانية. نتيجة هذا، تباعدت مراكز الخدمات الزراعية الرئيسية، كذلك مدن الاسواق وبالضبط كما جاء في تعديل نظرية الاماكن المركزية.

ان العلاقة بين احجام المدن والمسافات الفاصلة بينها ومناطق التجارة التي تخدمها والكثافات السكانية في المناطق المحيطة بها غير محددة. فاذا اخذنا برأي الجغرافي براين بيري واختبرنا هذه الخصائص بدء من منطقة شيكاغو ذات الكثافة السكانية العالية مرورا بمناطق الذرة والألبان في الينوي، وسكونسن، وايوا و مينسوتا، منطقة القمح في داكوتا واقطاعيات مونتانا فسنجد شيئا من الانتظام المكاني الواضح، وما قد يبدو للعين غير المدربة تبعثرا عشوائيا للمدن على الخارطة يصبح منتظما جدا على ضوء مجموعة من العلاقات.

ففي المناطق الحضرية قرب شيكاغو حيث الكثافة السكانية عالية جدا تكون مناطق التجارة صغيرة نسبيا وعدد السكان الذين تخدمهم المدن كبيرا، بتحركنا عبر الضواحي مرورا بنطاق الذرة الى مناطق القمح تتداعى الكثافة السكانية ولكن تبقى حالة الانتظام في العلاقات بين المناطق التجارية والسكان الذين تخدمهم، وفي وسط المنطقة نجد فجوة بسبب انخفاض الكثافة السكانية، وفي جنوب الينوي ينتشر نمط المدن المبعثرة.

لقد تحولت نظرية الاماكن المركزية اليوم من النموذج الهندسي البسيط الأكثر حتمية الى نموذج يتعامل مع الظهير البشري الذي يحتوي العديد من الاحتمالات، ويبدو ان هناك عددا كبيرا من الحالات غير المؤدة والمتأصلة في نظام الاماكن المركزية، اضافة إلى شيء من العشوائية، حيث لا يوقع المستثمر مخزنا جديدا بعد معرفة كاملة بالاسعار وحالة التنافس والحالات غير المنظورة (مثل انشاء طريق سريع عبر الإقليم، غلق مصانع قديمة..).

إن رياضيات نظرية الاماكن المركزية قد اصبحت أكثر احتمالية، واكثر صعوبة، وإن عليها معالجة المشاكل المنفصلة والمحددة (نقاط تمثل المستثمرين والمدن اضافة إلى الحالات المستمرة (تأثيرات الحيز الحضري الذي يتداعى باستمرار)، لهذا السبب فان اجزاء متقدمة من النظرية تبدو اليوم أكثر تشابها مع المشاكل التي كانت تعاني منها الفيزياء خلال عقد الثلاثينيات من هذا القرن. تبرز في الظهير البشري قمم حادة عند رسم خارطة اقليم فقير، وإن هذه الحالة مستمرة طالما هناك تغذية كبيرة من أموال سخ[illegible]صة للتعليم، ففي الغالب تبرز التركزات البشرية في المناطق السهلية المتسمة بالفقر في مدن تتوفر فيها الكليات والجامعات والمعاهد العليا، وبدون هذه التغذيات بالطاقة يكون هناك شك في تغيير الحالة بسرعة نسبية. لذا قد تحافظ القوى على ديمومة طيف الظهير، ولكن أي تغيير في حياة الناس سينعكس ويتطابق مع مجريات ما يحدث من تغيير في النمط الجغرافي.

وقد لاحظ Leslie Curry ، الجغرافي الأكثر تنظيرا اليوم، الكيفية التي تؤثر بها بعض الأشياء مثل النقل وتطوره و غياب دوريات العمل «تخصيص يوم من الأسبوع لإنجاز عمل معين دوريا» على نمط الإستيطان.

لقد حدثت التحولات في الظهير البشري القديم عبر فترة زمنية طويلة، وتبدو الانماط اكثر ثباتا وقد أخذت التغييرات مكانها ببطئ، وفي اجزاء أخرى من العالم، تتم التغيرات في انماط الاستيطان بسرعة مؤشرة حالة التبدل الذي يعيشه الناس هناك، وكما لاحظنا آنفا، تأخذ هذه التغيرات السريعة مكانا لها من خلال عمليات معقدة للتكيف بين انماط الاستيطان والتغيرات التي تحدث في شبكة الطرق واشكال النقل وظهور نشاطات اقتصادية جديدة أو تداعي نشاطات قديمة والتغيرات في نمط حياة الناس ودخول تقنيات جديدة للإستعمال.

منذ القديم، يركز الجغرافيون على الظهير كتعبير عن حياة الناس في الإقليم، وفقط حديثا، وبسبب المنظور التنظيري الجديد والقدرة على النمذجة انتقلنا إلى ما بعد التفسير التقليدي للظهير والدخول في عمق لتعليق العمليات العامة المؤثرة عليه.

درس الجغرافي Howard Gauthier إقليم ساواباولو في البرازيل وقدم أدلة قوية عن الطريقة التي تؤثر بها استثمارات انشاء الطرق في مرحلة زمنية على النمو الحضري في مرحلة زمنية على النمو الحضري في مرحلة لاحقة. ففي عام ١٩٤٠ كانت شبكة الطرق غير متكاملة وغير معبدة وكانت الحركة عليها مكلفة لذا كانت اتصالية المدن محدودة والوصول اليها صعب.

وخلال عقدين من الزمان جرت محاولات كبيرة لتطوير وتوسيع شبكة الطرق. وفي عام ١٩٦٠ غطت الاقليم شبكة من الطرق المعبدة وبهذا ازدادت بصورة عامة درجة سهولة الوصول واصبحت المدن اكثر اتصالية مع بعضها. بوضوح، إن الاستثمارات في مجال النقل قد لعبت دورا رياديا في التأثير على الإقليم والأنماط السائدة فيه، وبالمقابل فقد كان للنشاطات الحضرية أثر على الاستثمارات في مجال الطرق والنقل أيضاً.

وبطريقة مشابهة تقريبا، عرض الجغرافي الفرنسي Bernard Marchand تجربة فنزويلا، حيث حدثت تبدلات كبيرة في درجة اتصالية شبكة الطرق فيها بعد تحويل الطرق الطينية الضيقة الى طرق واسعة ذات سطح صلب للمرور السريع، مما أدى إلى تناقص كلف النقل، يعني هذا، إن الاماكن التي تم الربط بينها بطرق نقل سريعة قد اصبحت اقرب إلى بعضها. في أجزاء عديدة من العالم الثالث، يمكن ان تؤدي عملية تعبيد الطرق الى انقاص كلف النقل، وبالتالي تجعل التصدير ممكنا وتفتح الطريق للتعدين والاستفادة من الغابات وزراعة المناطق البعيدة.

تنتج الاستثمارات في النقل تأثيرات غريبة جدا، وكما لاحظنا ذلك في فنزويلا، فالإستثمار لتطوير سهولة الوصول لمدينة في الجزء الشمالي من فنزويلا ليس له تأثير كما لو صرفت الأموال على زيادة اتصالية مدن الشرق أو الجنوب التي ستؤدي إلى اختزال المجال الفنزويلي وتجلب الاجزاء الاخرى من النظام مع بعض، لذا، يمكن التفكير بفنزويلا وكأن المدن تتحرك تدريجيا لتكون قرب بعضها، وكأن الخارطة قد رسمت على ورق مطاطي تم سحبه عند الرسم ومن ثم ترك ليعود الى وضعه الطبيعي من بعد.

لا غرابة ان تعتمد العديد من الدول استثمارات كبيرة لتطوير ظهيرها الجغرافي وتصرف الأموال لإنشاء الخدمات التحتية الأساسية، وفي الغالب تتم هذه بمساعدة البنك الدولي. وإذا نظرنا إلى البرنامج الدولي للمساعدات منذ الحرب العالمية الثانية سنلاحظ ان نسبة كبيرة من الاستثمارات قد خصصت لتطوير النقل بصورة عامة والريفي بصورة خاصة. لقد وجهت هذه المساعدات لجلب فوائد للشعوب النامية. وما يبدو قد نسى، إن الطرق مزدوجة الإتجاه دوما، وإنها سلاح بحدين. فالطريق الذي يربط المدينة بالمدينة الأخرى يفتح مناطق زراعية جديدة ويسمح بانتقال الأفكار الجديدة والمعلومات والمنتوج. وكذلك السكان. النتيجة على عموم بلدان العالم الثالث كانت انهارا جارية من الهجرة من الريف الى المدن، مع كل اضاءة براقة تشع في الحواضر. نتج عن هذا تنامي مدن الصفيح وانتشارها حول

المراكز الحضرية الرئيسية. لقد نمت مدن الاعشاش هذه بدون توفير الماء للشرب لها أو توفير المأوى الجيد او مجالا لتصريف الفضلات او أي من الخدمات الأساسية. وهذا مثال حي لدينامية الأماكن المركزية وما تمثله من تطابق بين أنماط الاستيطان وظروف معيشة الإنسان.

إن الاهتمام بالحيز الجغرافي كفكرة ثابتة بحد ذاتها قد تحول الى الإهتمام بالزمن (البعد الرابع) و جميع التبدلات التي تحصل في المجال والزمان مع بعض، أحذرك باننا قد انتلقنا إلى منطقة صعبة، التفكير حولها، معالجتها بطريقة معقولة صعبة سواء بطريقة وصفية كلامية أو نظامية أو اشتقاقية رياضية، من الواقع، وحتى وقت قريب، لم نكن قادرين على معالجة أية مشكلة رياضيا، وقد لعبت الحاسبة دورا بارزا في مساعدة الجغرافيين لحل مشكلات جغرافية رياضيا والتوجه لحل مشاكل تنمية الاماكن المركزية بطريقة فاعلة. لننظر الأن إلى النموذج الجغرافي الذي سبب زوبعة من خلال الاحتمالات التي فتحها للعمل أمام الجغرافيين.